المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب
— قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق —
٢٩ ذي القعدة ١٣٣٩ ـ ١١ الاسد (ص ٢) سنة ١٢٩٩ هـ ش ٤ أغسطس سنة ١٩٢١

الخيال في الشعر العربي

٦

الغرض من التخييل

عادة النفس الارتياح للامر تشاهده في زي غير الذي تعهده به ، والتخييل يأتيها من هذا الطريق فيعرض عليها المعاني في لباس جديد ويجليها في مظهر غير مألوف

فللتخييل فائدة عامة لا تنخلي عنه وهي تحريك نفس السامع لتلقي المعنى بارتياح له واقبال عليه ولو كان من قبيل الحديث المألوف او المعلوم بالبداهة . وانظر ان رمت الثقة بهذا الى قول الشاعر

أخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطح

فالمعنى الذي صيغ البيت لتأديته انا أخذنا نتناوب الحديث والابل تسير

مسرعة في الاباطح . وهذا كما رأيته بمنى مبذول وحديث لا يختص به مار سبيل دون آخر ولولا ان الشاعر اورده في هذه الصورة التي خيلت اليك بطاعا تتدفق بسيل من اعناق المطايا لم ينل عندك هذا الموقع من الحظوة والاستحسان

قد يكون للمعنى في ذاته وجه يدعو نفس السامع الى النفور عنه ، وصناعة التخييل تبقي له أثرا لذيذا في النفس فتأتيها اللذة من ناحية غير الناحية التي يجيء منها النفور، فلو سمع اشياع ابن بقية قول عمارة اليمني شامتا به وهو مصلوب

ونكس رأسه لمتاب قلب دعاه الى الغواية والضلال

لوجدوا لهذا البيت في أنفسهم ألما بليغا يدخل عليها من جهة القدح في كرامة رجل امتلأت صدورهم باجلاله، وهذا الالم لا يمنع من ان يبقي للبيت في نفوسهم أثر لذة تسري اليها من جهة التخييل وان كانوا لها كارهين . ومما قلت في بعض الخاطرات: قد يهذب السياسي حاشية ظلمه فيكون كالبيت البليغ يؤثر في نفس من يهجى به لذة وألما

قد يبدو لك ان هذه الفائدة العامة انما تتحقق فيما اذا كان المعنى مرويا للسامع من قبل التخييل كوصف حال القمر والكواكب والبرق والسحاب والرياض والانهار، والمقلة والثغر والقلم والدواة، او حال الرجل من كرم وشجاعة وعلم وغيرها من الخصال اذ يصح ان يقال ان التخييل قد عرض على السامع هذه المعاني في صور حديثة. واما الوقائع والاحوال المجهولة فلم يعرفوا لها صورة من قبل حتى تعد الصورة الخيالية جديدة وتحدث في النفس لذة زائدة من لذة العلم بأصل المعنى

والجواب ان المعنى الذي تتلقاه من الشاعر دون ان تسبق لك معرفة به قد يلقيه اليك بوجه صريح ثم يدخل به في الخيال كما هي الطريقة الشائعة في التشبيه والتمثيل ، وعد التخييل في هذا صورة جديدة بالنسبة الى الصورة التي تقدمها التصريح أولا مما لا تشريك فيه شبهة

وقد يلقيه لاول الخطاب في صورة خيالية وهذا مما يصح عده في الصور المستجدة اذ للمعاني صور اصلية وهي التي ترتسم في النفس لاول ما تدرك المعنى بمشاهدة او وجدان فالنفس تشعر حال تلقيها للصورة الخيالية ان للمعنى الذي تحمله اليها صورة أخرى هي الصورة البسيطة التي يعبر عنها بالقول الصريح

ولك ان تقول بعد هذا ان صور المعاني تختلف باختلاف العبارات

سواء كانت تصريحيه او تخييلية فالصورة التي يعطيها قولك: زيد يكتب غير الصورة التي ينتجها قولك زيد يخط بالقلم على القرطاس، وكل منهما صريح لامدخل فيه للخيال واذا كان التخييل يلذ النفس من جهة انه يكسو المعنى لباساً جديدا فيمكن لنا ان نصوغ للمعنى عبارة صريحة غير التي يعرفها المخاطب فيأخذ بها صورة جديدة، ولا يفوز التخييل بهذه الفائدة ويختص بها دون التصريح

والجواب ان الصور التي تنشأ من العبارات الصريحة وان تفاوتت في مواقع البلاغة واختلفت بالايجاز والاطناب لاتعد كما تعد الصورة الخيالية غريبة عن المعنى المراد، الا ترى انك تعرض المعنى الواحد في صور خيالية متعددة والشعر واحد فيجد السامع عند كل صورة داعية لذة، ولو القيت المعنى في عبارة صريحة ثم بدا لك ان تخرجه في عبارة أخرى تشاكلها في الصراحة والمخاطب واحد لقيت في نفس المخاطب سآمة لانك لم توافها بصورة غريبة تخيل بها انك تعبر عن معنى غير ما ألقيته عليها أولا

فلا انكر ان الصور في العبارات الصريحة تتفاوت بحسب اختلاف العبارات في كيفية تأليفها ومقدار ما تشتمل عليه من المعاني الزائدة عن اصل المراد وان هذا الاختلاف هو الذي يجعلها متفاضلة في مقامات البلاغة وانما اذهب الى ان تلك الصور وان احكمت فستقتها واصبت البها من المعاني ما يرتفع به شأنها لاتهيج في نفس السامع هزة الطرب التي تثيرها العبارات الخيالية

فالعبارات الخيالية تشارك العبارات الصريحة في جودة نسجها واشتمالها على المعاني التي ترتقي بها في مدارج البلاغة وتزيد عليها باراءتك المعنى في صورة بديعة تعشقها النفس وتهتز لوقعها طربا

ثم ان التخييل لايخلو في أكثر احواله من صوغ المعنى في صورة ما تكون معرفة المخاطب له أقوى وفهمه اليه أسرع، وهذا مما يجعل له من النفس أوفر وارتياحها له أكمل

ولا احسبك تقع من هذا الوجه في شبهة او تقف في حيرة حين ترى الوجه السابق يقتضي ان لذة التخييل جاءت من غرابة الصورة وهذا يقتضي ان انبساط النفس لها جاء من جهة ألفها وكثرة التردد عليها فان غرابتها بالنظر الى المعنى المراد لاتنافي ان تكون معرفتها بهيأتها او عناصرها اجلى لدى المخاطب في ذاتها. فالشاعر الذي يقول

كان شعاع الشمس في كل غدوة على ورق الاشجار اول طالع
دنانير في كف الاشل يضمها لقبض فتهوي من فروج الاصابع

قد خيل اليك حال تدفق الاشعة وقت الغداة وتجليها على الاوراق في صبغتها الصفراء في صورة دنانير يضم عليها الاشل يده ليقبض عليها فتنساب من بين أصابعه متساقطة الى الارض . وهذه الصورة بالنظر الى مسلق الحديث وهي حال الاشعة غريبة ولكنها في نفسها جلية اذ السامع للبيتين وان لم يشاهد من قبلهما دنانير تتناثر من يد الاشل فان المواد المؤلفة منها الصورة كالدنانير واليد المرتعش من أوضح معلوماته .

والتخييل بعد هذا اغراض خاصة يرمي اليها الادباء ويتفاوتون في التمكن منها ولا يسع هذا المقال سوى ان نلم بمهماتها فنقول

قد يقصد الشاعر من التخييل تقوية الداعية الى الاخذ بالشيء حيث يصوره بصورة مالا يستغنى عنه كما قال بشار

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم

ضرب المثل للشورى في تثبيت الرأي واقامته على وجه السداد بالخوافي من الجوانح حيث تساعد القوادم على الطيران ، وهذا التمثيل يلقي في نفس السامع انه محتاج الى الشورى حاجة القوادم الى الخوافي ويؤكد داعيته الى العمل على سنتها او الحث على الثبات والصبر على الامر حيث يخرجه في مثال مالا يمكن بطبيعة هذه الحياة الخلاص منه كما قال بشار أيضاً

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا او صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا انت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فالابيات مسوقة في الارشاد الى تحمل مايصدر عن الاخوان من جفاء او هفوة فضرب لهم المثل بالمشارب حيث لا مندوحة للانسان عن ورودها وهي لا تصفو له سائر حياته بل يصادفها في بعض الاحيان كاشفة له عن وجه كالح وماء كدر ، يلجئه الظمأ الى الشرب منها ، واغضاء الجفن عن اقذائها ، فهذا التمثيل يريك انك لا تستطيع ان تعيش مستقلا عن الاخوان وان ليس في طبيعتهم ان يسيروا في مرضاتك بحيث لا تلاقي منهم طول حياتك الا ما يلائم طبيعتك ويوافق بغيتك ، ومقتضى هذا ان تشد يدك بعرى صحبتهم وتغضي عما يعرض

لم في بعض الاوقات من جفاء او يزلون فيه من عثرات

او التحذير مما يرغب فيه كما قال ابو نواس

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

لوذهب الى ذم الدنيا صراحة وهي حلوة خضرة لم يأخذه السامع مأخذ التسليم وأنكر ان يكون في لذيذها المذاق جميل المنظر ما يجب الحذر منه فعدل الى اخراج الذم في مثال يريه كيف يتزيى الشر بزي الخير ويظهر المؤذي في بهجة ما يعد نافعا

او تخفيف الرغبة فيه وتقليل الاهتمام به كما قال المري

وان كان في لبس الفتى شرف له فما السيف الا غمده والحمائل

فمن تمثلت له الملابس بمنزلة الغمد والحمائل من السيف لم يطمح بنظره الى تنميقها او يجهد سعيه في اتخاذها من النسيج الفاخر وانما يصرف همته الى ما تسمو به النفس من علم وفضيلة كما ان البطل لا يعبأ بالغمد والحمائل وانما يقبل على السيف فينتقي وسمه في اجادة صنعه وارهاف حده

او التسلية كقول صاحبنا الامير شكيب يسلي البارودي وهو في المنفى

ان يحجبوك فما ضر النجوم دجى ولا يزري السيف يوما ملي اغماد

لا بأس ان طال نجز السعد موعده فاعذب الماء شربا في فم الصادي

اراد ان ينفث في نفس مراسله كلمة تحل منها عقده الضجر وتطرد عنها غيم الوحشة فذكره بأن ما جرى عليه من التغريب والاحناء من أعين من ألفوه وألفهم قد ابتليت بمثله الكواكب فلم يمسها بنقيصة ومنيت به السيوف فلم يضع من قيمتها فتلا . ورام بعد هذا تخفيف ما عساه ان يساور قلبه من لوعة الحنين الى الوطن، والهم بما نال عليه من الامد، فاقام له مثلا من حال الماء حيث يكون مذاقه في فم من بعد عهده به — وهو الظمآن — الذواشعي

ومما صنعت في غرض التسلية

بثثت شعاع علمك في نفوس تسوق اليك ما استطاعت حتوفا

كذا الاثمار تكسو الارض نورا ولولا الارض ما لقيت خسوفا

او ازالة ما يخالط النفس من النفور عن الامر او عده عيبا كما قال الفرزدق

تفاريق شيب في شباب ولمة وما حسن ليل ليس فيه نجوم

ضرب المثل لمنمر الاسود تتخلله شعرات من الشيب بحال ليل داج تتألق في سمائه الكواكب ليخيل ان الشيب مما يحدث في الخلقة حسنا ويريدها بهجة

حتى يضع الانس به مكان التجافي عنه . ومن هذا القبيل قول تأبط شرا

يا ذا الذي يصرف الدهر غيرنا هل عاند الدهر الا من له خطر

أما ترى البحر تطفو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر

وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف الا الشمس والقمر

او الدلالة على ان الذي تحكى عنه صفة قد بلغ فيها غاية قصوى للتستدعي له في نفس المخاطب اجلالا واشفاقا او تحقيرا له او جفاء عنه ، ويرجع الى هذا الغرض كثير من التخيلات الواردة على طريق المبالغة في المدح والفخر والاعتذار والهجاء والوشاية وامثلتها كثيرة الدوران في كتب الادب والبيان

وقد يكون المعنى مما لم تتداوله الافكار وليس من البعيد ان يلاقيه المخاطب بالتعجب الذي هو مطية الانكار ، فيجيء التخييل عقب هذا لازالة التعجب منه وبيان ان وقوعه داخل في حوزة الامكان وهذا كما يقول أبو تمام الاندلسي

لا يفخر السيف والاقلام في يده قد صار قطع سيوف الهند للقصب

فان يكن أصلها لم يقو قوتها فان في الحر معنى ليس في العنب

ادعى في البيت الاول ان القطع الذي عهدت به السيوف قد انتقل الى الاقلام التي تهزها يد ممدوحه فلم يبق للسيوف خصلة تفاخر بها ، وليست هذه الدعوى من الجلاء بحيث تفتح لها النفوس باب القبول بسرعة واول ما يطعن فيها ان الاقلام منتقة من القصب وهي اوهن من المصادع السيف ومضاءه فاحتاج الى تأييدها بما يدفع الشبهة ويحشرها في زمرة الاقوال المسلمة فضرب لها المثل في البيت الثاني بالحر التي هي عصارة العنب وقد امتازت عن بقية العصير بإلقاء نور العقل واطلاق اللسان يخبط في فلاة الهذر خبط عشواء فصارت بهذه الخاصية حقيقة قائمة بنفسها ومالكة لقوة لم تكن في جنسها

وقد يكون المعنى مما تألفه العقول ولا يتشبث به في سياقه ما يجير السامع الى ارتياب او يحمله على انكار وانما يقصد الشاعر الى ايراده في مثال او ضمن حكم يقع من نفوس السامعين في قرار مكين ومثال هذا قول سيف الدين بن المشد

ان ترق الى المعالي أولو الفضـ ـل وساخت تحت الثرى السفهاء

فلهذا المدام يعلو على الكأ س محلا وترسب الاقذاء

فارتفاع الفضلاء الى المراتب العالية وهبوط أهل السفه الى ما تحت الثرى

ليس في نفسه بأمر يتعجب منه او يتلقى بانكار فما كانه بارتفاع الحباب على وجه الكاس ونزول الاقذاء الى اسفله انما كانت مؤكدة له ومفسحة عن مناسبته للحكمة وانطباقه على سنة الله الجارية بارتفاع العناصر النقية ورسوب الاجرام المتعفنة . ومما صنت على هذا النمط

لا يألف المز شعبا لج في وسن من الخلاعة لا مسى ولا أملا
كالدر يزهو على صدر الفتاة وان دب النماس الى اجفانها اعتزلا

ومن الدواعي الى التخييل تخصيص بعض السامعين او القارئين بفهم المعنى اما لفضل أهليته او لان في يده من القرائن المساعدة له على الفهم ماليس في يد غيره فلو حاورك انسان في أمة من الناس اقاموا على فريق من أموالهم رقباء فأردت ان تذكر له ان أولئك الرقباء لم يحرسوها بعين الامانة حتى تناولها قوم ملأوا منها حقائبهم ونثروها في سبيل شهواتهم فكتبت اليه على منوال ما كنت قلت

يا رياضا خانها الحراس اذ غرقت احداقهم في وسن
سرقت ريح الصبا منك شذى طاب وانسابت به في الدمن

لم يستطع فهم ما أردت من الكلام الا من دارت بينك وبينه تلك المحاورة . وقد يذهب الشاعر الى التخييل لقصد التهكم كما قال المعري يتهكم بمن يحكي ان أول من شاب ابراهيم عليه السلام

ما اقبح المين قلتم لم يشب أحد حتى أتى الشيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة ان المشيب قديما حل في الادم

فكأنه يقول هذه الرواية الملفقة ليست اهلا لان تقابل بغير هذا الرد القائم على الخيال . ويقرب من تخييل نجوم الليل بالمشيب قول احمد بن دراج القسطلي يصف المجرة

وقد خيلت طرق المجرة انها على مفرق الليل البهيم فتير

وربما لا يجد الشاعر داعيا الى مسلك التخييل بمد بسط النفس سوى التنبيه على ما بين المعاني من المناسبات الخفية او مجاراة البلغاء واقامة الشاهد على الحذق في هذه الصناعة ، ومما يرمي الى أحد هذين الغرضين ما يتعلق به الادباء في وصف بعض المناظر الفطرية كالكواكب والحدائق او الصناعية كالشمعة والسفينة

محمد الخضر